

الإقطاع العسكري في بلاد الشام في عهد

نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ)

١ - الإقطاع لغة واصطلاحاً ، وأنواعه :

الإقطاع مصدر جمعه قطائع وإقطاعات مفردها إقطاعة وهي لغة : قطعة من أرض الخراج تقطع إلى الجند، فتجعل لهم غلتها رزقاً^(١) . أما اصطلاحاً : فالإقطاع على نوعين، الأول : أن تقطع أرض إلى شخص ما لخدمة قدمها، أو لميزة امتاز بها، أو لإحيائها، وتكون له ولأبنائه من بعده، فهذا إقطاع تملك أو إقطاع رقة. والثاني يخص الأراضي التي يمنحها الخلفاء أو الأمراء أو الولاة لمن يستغلها من الجند دون ملكيتها، ويعرف بالإقطاع العسكري أو إقطاع استغلال^(٢).

(١) الجوهرى، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٢هـ) : الصحاح أو تاج اللغة وصحاح العربية : تح أحمد عبد الغفور عطار - ط ٢ - بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٩ م .

(٢) أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم (ت ٢٨١هـ) : كتاب الخراج، مستل من كتاب التراث الاقتصادي الإسلامي - ط ١ - بيروت : دار الحداثة، ١٩٩٠ م ص ١٦٩ : الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ) : الوزراء؛ تح مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي - ط ١ - القاهرة : مطبعة البابي الحلبي، ١٩٢٨ م، ص ٩٦-٩٧ : الجبر، حصة : الحياة الاقتصادية في فارس خلال الفترة من (٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٩٦-٩٤٥م) رسالة دكتوراه لم تتشر - الرياض : جامعة الملك سعود، كلية الآداب (١٩٩٤م) ص ١٣٠ .

الدكتورة :
أمينة
محمد علي
بيطار*

* ليسانس من
جامعة دمشق
عام ١٩٦٩م .
- دبلوم الدراسات
العليا من جامعة
القاهرة عام
١٩٧٠م .
- ماجستير في
الآداب - قسم
التاريخ من
جامعة القاهرة
عام ١٩٧٢م .
- دكتوراه من
الجامعة نفسها
عام ١٩٧٥م .
- لها العديد من
المؤلفات في
التاريخ
الإسلامي
والحضارة
الإسلامية .
- تعمل الآن أستاذة
في التاريخ
الإسلامي في
جامعة الملك
سعود .

الطبعة

ربيع الأول ١٤٢٤هـ / مايو ٢٠٠٣م
جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ / أغسطس ٢٠٠٣م

السنة السادسة

العددان : الحادي والعشرون والثاني والعشرون

وتكون الأراضي المقطعة من أراضي الخراج للجنـد الذين لهم أرزاق مقررة، تعويضاً لهم عما أُرصدوا نفوسهم إليه من حماية البيضة والذب عن الحريم. ويجب أن يُحدّد في هذا النوع من الإقطاع سنون معلومة عند المُقَطَّع وعند باذل الإقطاع، ويبطل الإقطاع بانقطاع المدة، أو بموت المُقَطَّع قبل انقضاء المدة^(١). فإذا حُدِّت المدة يعد هذا النوع من الإقطاع صحيحاً من الوجهة الشرعية، أما إذا تم الإقطاع مدة الحياة، ثم للعقب والورثة بعد الموت فهو إقطاع باطل في رأي الماوردي^(٢).

٢ - تاريخ ظهور الإقطاع وتطوره عبر العصور الإسلامية:

بدأ ظهور الإقطاع العسكري أو إقطاع الاستغلال بداية غير واضحة أثناء العصر الأموي. فقد عمد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) أثناء ولايته على بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١١ - ٢٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٤٤ م) إلى إقطاع الجنـد الإقطاعات لتشجيعهم على الإقامة في المدن المحررة في السواحل باعتبارها ثغوراً، يستثمرونها ويتمتعون بخيراتها^(٣). وتعد سياسة منح الإقطاعات بالسواحل من سياسة معاوية البحرية الدفاعية، التي استمرت في عهد من خلفه^(٤).

نهج العباسيون نهج الأمويين في إقطاع الأراضي استغلالاً في مناطق الثغور لتأمين الدفاع عنها، فقد أُقْطِعَت أراضٍ في المصيصة للجنـد في عهد الخليفة أبي

(١) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ). الأحكام السلطانية والولايات الدينية -٠ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م، ص ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) الماوردي: المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٣) العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون -٠ ط ٢ - القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣ م، ص ٥٨.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ). فتوح البلدان: تح عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع -٠ بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م، ص ١٩٦.

العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) والخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٥م)^(١). وعند إعادة بناء ملطية في الثغور الشامية سنة (١٤٠هـ / ٧٥٧م) أمر المنصور بإقطاع الجند المزارع حولها، وكانوا نحو أربعة آلاف مقاتل^(٢). وأقطع الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) أهل خراسان إقطاعات في عين زربة سنة (١٨٠هـ / ٧٩٦م) بعد بنائها^(٣)، وأقطع عدداً من المناطق الثغرية لجنده أيضاً^(٤).

لم يعد الإقطاع العسكري في عصر قادة الأتراك (٢٢٢ - ٣٣٤هـ / ٨٤٦ - ٩٤٥م) محصوراً في منطقة الثغور، فقد أقطع القادة الأتراك أكثر أراضي السواد في العراق، كما بدأت في عهدهم ظاهرة إقطاع ولايات بكاملها^(٥). ولم يحسن قادة الأتراك استغلال الإقطاعات زراعياً لانشغالهم بأعمالهم العسكرية، ولذلك فإنهم كانوا يعودون إلى المَقَطع، ويطالبونه برد الإقطاعات التي بحوزتهم واستبدال غيرها بها، فصار النظام المتبع أن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون.

(١) البلاذري: المصدر السابق، ص ٢٢٧؛ قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ). نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ليدن، ١٨٨٩م، ص ٣٠٨؛ بيطار، أمينة. الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (١٣٢-٣٥٨هـ) - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٠م، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ). مختصر كتاب البلدان - ليدن، ١٩٦٧م، ص ١٠٩؛ بيطار: الحياة السياسية، ص ٢٥٥؛ طرخان، إبراهيم: الإقطاع الإسلامي أصوله وتطوره - بيروت: مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد (٦٢) كانون أول/ ديسمبر، ١٩٨٠م، ص ٥٣.

(٣) البلاذري: المصدر السابق، ص ٢٣٤؛ ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ). الكامل في التاريخ: راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق - ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ح ٦، ص ٣١١.

(٤) البلاذري: المصدر السابق، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ح ٦، ص ٢٧٧؛ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ). العبر وديوان المبتدأ والخبر - ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ح ٣، ص ٣٨٨.

واقترص المَقْطَعُونَ على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم. وبذلك كانت الأراضي العامرة تتحول إلى خراب. وأدى ذلك إلى فساد الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية^(١). وبهذا يمكن القول بأن الإقطاع العسكري وُجِدَ خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى، وإن كان هذا الوجود ضعيفاً نسبة إلى ما سيكون الحال عليه في العصور التالية، حيث ثبت ترسيخ الإقطاع العسكري، وأصبح نظاماً عاماً منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واستمر حتى بواكير العصر الحديث^(٢)، ذلك الإقطاع الذي جمع بين الإقطاع والإدارة، وتمتع المَقْطَعُ فيه بكافة حقوق الملكية، وهو الذي ساد في عهد نور الدين محمود بن زنكي، سواء في مصر أو في الشام، وكان أكثر وضوحاً في الشام منه في مصر. ولعل ذلك راجع إلى الانقسام السياسي الذي كان ظاهرة ملازمة لبلاد الشام في أكثر مراحل تاريخها.

٣ - الإقطاع العسكري ظاهرة عامة في عهد نور الدين :

اتخذ الإقطاع العسكري شكله النهائي في عهد نور الدين محمود، إذ أعطى أمراء الجند، إقطاعات تتناسب في مساحتها وأهميتها مع عدد الجند الذين يقدمونهم له. فكان يُقْطَعُ أحدهم قطعة أرض فقط، وقد يتسع ويشمل الإقطاع مدناً كبرى وحصوناً^(٣).

(١) مسكويه، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ). تجارب الأمم وتعاقب الهمم - القاهرة : شركة التمدن الصناعية (١٩١٤م) ج٢، ص ٩٧-٩٩: بيطار، أمينة . تاريخ العصر العباسي - ط٤ - ٠٠ - دمشق : جامعة دمشق ، (١٩٩٢م) ص ٢٤٢ .

(٢) إسماعيل، محمود . الإقطاع في العالم الإسلامي - الكويت : حوليات كلية الآداب ، الحولية (١١) ، ١٤١٠هـ ، ص ٩ .

(٣) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) . التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية؛ تح عبد القادر طليمات - القاهرة : دار الكتب الحديثة - بغداد : مكتبة المثنى (١٩٦٣م) ص ١٦٩؛ بيطار، أمينة: تاريخ العصر الأيوبي - دمشق : دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨٢-١٩٨١م ، ص ٢٤٣ .

واتسم نظام الإقطاع العسكري الذي اتبعه نور الدين ومن جاء بعده بأنه إقطاع هرمي، ذلك لأن صاحب الأمر يقطع أحد أفراد أسرته، أو أحد كبار رجال دولته منطقة من بلاده، يقوم بكل أمورها، بعد الرجوع إلى السلطان مباشرة لاستشارته، وعليه تهيئة الجند ودفع عطاءاتهم. ويستطيع صاحب الإقطاع الكبير، إقطاع جزء من إقطاعه لأحد رجاله ممن يثق بهم، وهو مسؤول أمامه، ويقوم هذا بدوره بإقطاع من هو دونه، وهكذا^(١). وقد سار عماد الدين - والد نور الدين - قبله على النهج نفسه . وهو أحد المقطعين من قبل السلاجقة .

٤ - سيادة الإقطاع العسكري في عهد نور الدين :

ولسيادة الإقطاع في عهد نور الدين محمود أسباب متعددة على رأسها :

١ - أن العالم الإسلامي فقد موارده المالية من التجارة الدولية البحرية نتيجة هيمنة الدولة البيزنطية والمدن الإيطالية على البحار، وانتزعت من دوله الوساطة في تجارة العبور الدولية، فضعف اقتصاد العالم الإسلامي، وقلت أمواله، الأمر الذي أدى إلى التمهيد لسيادة الإقطاع.

٢ - اجتاحت العالم الإسلامي موجة بدوية رعوية، انطلقت من الأطراف لتسيطر على المراكز، وأقامت نظاماً عسكرياً كرّست نظام الإقطاع، وزحفت نحو الشام ومصر قبائل عربية بدوية استقرت بها، وبلغ بعضهم إلى شمالي إفريقية، فحل

(١) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ) . عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية؛ تح أحمد البيسومي - دمشق : وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي ، ١٩٩١م ، ج١ ، ص ٧ هامش ١ : القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، - ط١ - بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م ، ج ٢ ، ص ٣٩٨-٤٠٤ .

نتيجة لذلك الاقتصاد القائم على الزراعة والرعي محل الاقتصاد التجاري .
وتدهورت بذلك الأوضاع الاقتصادية^(١).

٣ - كانت بعض الإقطاعات تعطى لبعض الجماعات لتقف حاجزاً في وجه الأعداء .
فقد أقطع نور الدين جماعة من التركمان الإقطاعات، وكلفهم بالظفر بجوسلين
الثاني ملك الصليبيين بأي طريقة^(٢) ، فتمكن التركمان من أسره.

٤ - حاجة نور الدين محمود إلى تجنيد عدد كبير من الجنود بسبب وضع إمارته
العام بين أعداء من الداخل، إضافة إلى الصليبيين والبيزنطيين، مما جعلها في
حالة حرب مستمرة على جميع حدودها، وخاصة مع الصليبيين في الوقت الذي
لم تكن مواردها تكفي نسبياً لدفع أرزاق الجند، ولذلك فإن نور الدين منح
الجند إقطاعات عسكرية تغل عليهم ما يعيشون به^(٣).

٥ - الرغبة في ربط الدفاع عن البلاد بالمصلحة الخاصة لأصحاب هؤلاء الإقطاعات.
وقد بدأ عماد الدين زنكي - والد نور الدين - بإعطاء الإقطاعات للغاية نفسها،
تلك الإقطاعات التي استمر بعضها في عهد نور الدين. فقد أقطع عماد الدين العشائر
التركمانية المتنقلة أرضاً بجوار حلب يسكنونها ويكلفون الدفاع عنها وعما وراءها،
إضافة إلى ملكيتهم للأراضي التي يستعيدونها من الصليبيين، وعن ذلك قال
أبو شامة متحدثاً عما فعله عماد الدين: "ومن صائب رأيه وجيده، أن سير طائفة
من التركمان الإيوانية مع الأمير الياروقي إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب،

(١) محمود إسماعيل. المرجع السابق، ص ٩، ٢٥، ٣٣، ٣٤.

(٢) كان جوسلين الثاني من شياطين الصليبيين شديد العداوة للمسلمين مقدماً في الحروب عند
الصليبيين لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للمسلمين، وغدره ومكره، لا يفي
بعهد فطالما نكث وغدر (أبو شامة . عيون الروضتين، ج ١ ، ص ٢٢٦) .

(٣) جب، هاملتون. مآثر صلاح الدين، دراسات في حضارة الإسلام - بيروت : دار العلم للملايين،
١٩٧٤م، ص ١٠٧؛ بيطار . أيوبي، ص ٢٤٢ .

وأمرهم بجهاد الفرنج - الصليبيين المحتلين - وملكهم كل ما استتقذوه من البلاد للفرنج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويرأحونهم^(١).

ويتضح لنا مما سبق عدة أمور :

أولها: أن الزنكيين^(٢) الأتراك عملوا على إحضار التركمان، وهم جنس من الأتراك إلى بلاد الشام، وأعطوهم الإقطاعات. وقد يكون ذلك بسبب وحدة الجنس، وأن الزنكيين كانوا يثقون ببني جنسهم في الدفاع عنهم.

ثانيها: أن الزنكيين ضمنوا، بإعطاء هؤلاء التركمان للإقطاعات، أنهم لن يتكلفوا دفع مرتبات لهم، بل سيكتفي هؤلاء التركمان بواردات إقطاعاتهم .

ثالثها: أن الزنكيين كلفوا هؤلاء التركمان تحرير الأراضي المحتلة من الصليبيين، بإقطاعهم أي أرض يحررونها. وكان هذا من العوامل المشجعة لهم على قتال الصليبيين بحماسة منقطعة النظير .

وبهذا فإننا نرى بأن عماد الدين زنكي كان يفضل منح الإقطاع العسكري على الأملاك الخاصة، يبدو ذلك مما خاطب به أصحابه قائلاً : " فأني حاجة لكم في الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد من أيدينا، فالأملاك تذهب معها. ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان، ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغضبوا أموالهم^(٣) . وسار ابنه نور الدين محمود على المنهج نفسه .

(١) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) . تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت : دار الجيل (د.ت) ح ١، ص ٤٣-٤٤ ؛ بيطار : أيوبي، ٢٤٢ .

(٢) الدولة الزنكية هي الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي والد نور الدين والتي نسبت إليه .

(٣) ابن الأثير: الأتابكة، ص ٧٧ ؛ أبو شامة. تاريخ الروضتين، ح ١، ص ٤٣ ؛ ابن قاضي شهاب (ت ٨٧٤هـ): الكواكب الدرية في السيرة النورية؛ تح محمود زايد - ط ١ - بيروت : دار الكتاب الجديد، ١٩٧١ م، ص ١٢١ ؛ بيطار . أيوبي، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

ه - سمات الإقطاع في عهد نور الدين :

جعل نور الدين محمود الإقطاعات متوارثة من الآباء إلى الأبناء وخاصة الابن الأكبر، وإن كان قاصراً، رتب له السلطان رجلاً يثق به، فيتولى أمره إلى أن يكبر، ويكون له بمثابة أتابك^(١)، على أن يؤدي هؤلاء الورثة الخدمات التي كان يؤديها المقطع الأول، نفسها .

وعلى الرغم من أن في وراثة الإقطاع العسكري مخالفة للنظم الإسلامية، فإن بعض المؤرخين امتدحوا طريقة نور الدين في الإقطاع، فقالوا : "ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. فقد كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً، يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب"^(٢).

وعلى هذا يتضح أن نور الدين كان يتوخى من توارث الإقطاع إثبات المصلحة العامة، إذ وجد فيه دافعاً قوياً من قبل المقطعين للدفاع عن إقطاعهم. ذلك لأنهم يدافعون عن أراضٍ يستغلونها في حياتهم، ويغلب أنها ستبقى في يد أبنائهم بعد وفاتهم، وبذلك فهم آمنون على ورثتهم.

(١) ابن الأثير . الأتابكة، ١٦٩ : ابن واصل، محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - القاهرة : جامعة القاهرة، ١٩٥٣م، ج ١، ص ٢٨٠ .
والأتابك هو الأب المربي، انظر القلقشندي . صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨ : الباشا، حسن : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار - القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٦م، ص ١٢٣ .

(٢) أبو شامة . عيون الروضتين، ج ١، ص ٢٦٨ : ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية، ص ٣٠ : بيطار : أيوبي، ص ٢٤٣ .

ويبدو ذلك مما حدث حين انهزم نور الدين محمود أمام الصليبيين سنة (٥٥٨هـ/١١٦٢م) في البقيعة أمام حصن الأكراد، إذ جمع نور الدين ما تبقى من جنده بالقرب من حمص، وأرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجند، ووزع ذلك جميعه على من سلم من جنده. أما من قُتل فأقْرَّ أولاده على إقطاعه، ومن لم يكن له ولد أعطاه لبعض أهله، فعاد العسكر كأن لم يُفقد منهم أحد^(١). وعلى هذا فالإقطاع في عصر نور الدين إقطاع الحكم والولاية لمدة قد تطول وتقصّر، وإن كان يُورث، فبرأي المُقطع، وليس وراثة أكيدة. هذا ويجب القول هنا، بأن توارث الإقطاع كان قد اعتمد من قبل عماد الدين زنكي والد نور الدين. فعمل نور الدين على تطبيق ما كان أبوه قد طبقه. وعلى العموم فإن ذلك أصبح شبه قاعدة للإقطاع في العصر السلجوقي عامة، الذي تعد دولة عماد الدين وابنه نور الدين امتداداً له.

٦ - الواجبات المترتبة على متولي الإقطاع :

ترتب على المُقطع عدة أمور، فكان عليه تجهيز الجند في إقطاعه للجهاد، بإشراف نور الدين الذي يتولى الإطلاع على تجهيزاتهم بنفسه، ويباشر خيولهم وسلاحهم، مخافة أن يُقصّر الأمراء في تجهيزهم وحققهم، اختصاراً للنفقات، ولإبقاء أكبر قدر من مردود الإقطاع لهم. وكان نور الدين يوضح سبب اهتمامه بالإشراف على تجهيز الجند الذين هم عماد الدولة في الدفاع عنها، فيقول: "نحن في كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد، دخل الوهن على الإسلام"^(٢).

(١) ابن قاضي شهاب. المصدر السابق، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) ابن الأثير. الأتابكة، ص ١٦٩؛ أبو شامة. تاريخ الروضتين، ح ١، ص ٤٤؛ وعيون الروضتين: ح ١،

ص ٣٦٨؛ ابن قاضي شهاب. نور الدين، ص ١٠-٣١؛ بيطار. أيوبي، ص ٢٤٣-٢٤٤.

وكان اطلاع نور الدين على تجهيز الجند، وتدوين التجهيزات والخدمات المترتبة على صاحب الإقطاع، من الأمور التي اضطرت صاحب الإقطاع إلى تنفيذ ما توجب عليه، وإن قصر في ذلك، فإن إقطاعه سوف يسحب منه، ويعطى إلى من يثق به المقطاع، ويتعهد بتقديم الخدمات المتوجبة .

كما كان على المقطاعين أن يؤدوا بعض الخدمات، والتي منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي^(١) وغيرها، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية، مثل رعاية شؤون الأمن في الإقطاع والعناية بالزراعة، وصيانة الجسور. فكان على المقطاع أن يجند العدد المقرر عليه من الجند، ويخصص جزءاً من إقطاعه لكل منهم، أو يمنح كل جندي مرتباً معيناً يناسبه^(٢).

وباختصار فقد كان على صاحب الإقطاع أن يمارس كل حقوق إدارة إقطاعه من جباية للضرائب سواء أكانت نقدية أم عينية، إضافة إلى فلاحه الأرض وسقايتها على الوجه الأكمل^(٣)، وأن يحسن إدارة إقطاعه، ولا يأخذ الرشوة من الناس، وأن يكون حسن الجوار مع جيرانه من المقطاعين، وأن يحدد الإيجارات والجبايات التي يكلف بها الفلاح في إقطاعه. وقد أخذ عليه نور الدين سجلاً بالواجبات المترتبة

(١) الجوالي: جمع جالية، وتطلق على أهل الذمة، ولزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية، وإن لم يُجَلُوا عن أوطانهم. انظر القلقشندي. المصدر السابق، ح ٣، ص ٥٣٠؛ البقلي، محمد قنديل. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ص ٩٤.

(٢) حسنين، محمد ربيع. النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين - القاهرة: (د. ط)، ١٩٦٤م، ص ٣٤؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك - بيروت: دار النهضة العربية (د. ط)، ص ١٣٩.

(٣) ابن ممتي، أسعد (ت ٦٠٦هـ). كتاب قوانين الدواوين: تح عزيز سوريال عطية - ط ١ - القاهرة: مطبعة مدبولي، ١٩٩١م، ص ٣٦٦؛ بيطار. أيوبي، ص ٢٤٣.

عليه من ناحية العدة والعتاد والرجال ورعاية شؤون الإقطاع^(١). وقد حدث هذه القيود التي وضعت على صاحب الإقطاع من نفوذه وثروته. ومن المهم أن نذكر، أن السجلات المدوّن فيها واجبات المقطع وحقوقه كانت تحفظ في ديوان الإقطاع.

ترتب على صاحب الإقطاع توزيع الأسلحة والزرذ والنفقات على الجند حسب نص الاتفاقية بينه وبين المَقْطَع. وعلى الجندي بعد أخذ استحقاقاته أن يستحضر ما يلزمه من المؤن، ما لا يقل عن مؤونة تكفيه عشرة أيام، من السوق التي تقام لهم قبل الخروج إلى المعارك^(٢). وعلى الرغم مما كان يُكَلَّف به صاحب الإقطاع من تسليح جنده، فإن أولي الأمر في الدولة كانوا عند المسير إلى القتال يوزعون - قبل المعركة مباشرة - الدروع الواقية والأسلحة الثقيلة التي كانت تودع في الزرد خانة، فقد أعطى نور الدين قائده أسد الدين شيركوه - صاحب حمص - سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) مئتي ألف دينار، حين طلب منه التجهز للحملة الثالثة إلى مصر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)، سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة^(٣).

ويبدو أن ظروف الحرب في بلاد الشام دعاها إلى القيام بصناعات حربية نشطة، خاصة وأن هذه المنطقة تتوافر فيها المواد الأولية اللازمة للصناعة، إلى جانب وجود فئة من الصناعيين المهرة. فبلاد الشام عرفت بتوافر مادة الخشب فيها من غابات الجبال الكثيفة، لاسيما أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط وغيرها. وكانت الأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات والأبراج والصلالم ورأس الكبش تصنع في بلاد الشام^(٤). كما كانت تصنع بعض الحاجيات الأخرى التي يحتاجها الجيش، مثل

(١) انظر فيما بعد، وانظر ابن الأثير. الأتابكة، ص ١٦٩؛ بيطار. أيوبي، ص ٢٤٣.

(٢) عاشور. مصر والشام، ص ١٥٤؛ بيطار. أيوبي، ص ٢٤٩.

(٣) ابن الأثير. الأتابكة، ص ١٣٩؛ ابن قاضي شعبة. الكواكب الدرية، ص ١٧٧.

(٤) حسين، محمد محسن. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها - ط ١ - بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ص ١٦٥.

السروج التي كانت تصنع في غزة. ويوصف الواحد منها بأنه سرج غزي مليح^(١).

٧ - ديوان الإقطاع وأعماله :

كان للإقطاع ديوان ملحق بديوان الجيش. ولا يُثبَّت في هذا الديوان إلا من كان عنده الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناتها دون البغال والبراذين. ولم يكن لصاحب الإقطاع أن يغير أحداً من الأجناد ولا شيئاً من إقطاعهم إلا بمرسوم. وكان عند صاحب ديوان الجيش نقباء الأمراء يعرفونه أحوال الأجناد، ومن توفي منهم أو مات أو غير ذلك. كما كانت حدود الإقطاعية تعين في السجل المعطى للإقطاعي، وتصدر بذلك وثيقة من ديوان الإنشاء. وسمح لصاحب الإقطاع بالمقايضة بالإقطاعات إذا وجد أن المصلحة تقتضي ذلك. ولا يتم ذلك إلا بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس^(٢).

كان ديوان الإقطاع يختص بما هو مُقَطَّع للأجناد ، وليس للمباشرين فيه تنزيل حلية جندي، ولا شيء دابته. وكان يقال لإقطاعات العربان في أطراف البلاد وغيرها الاعتداد ، وهي دون عبدة الأجناد^(٣). وإلى جانب هؤلاء كان يوجد جند لم تُثبَّت أسماءهم في ديوان العطاء ، ويعرفون باسم الباطلية^(٤)، تصرف لهم

(١) ابن منقذ، أسامة (ت ٥٨٤هـ): كتاب الاعتبار: تح قاسم السامرائي - ط ١ - الرياض : مؤسسة دار الأصاله للثقافة والنشر والإعلام، ١٩٨٧م، ص ٥٢ .

(٢) حسين . الجيش، ص ١٢٣-١٣٤ نقلاً عن صبح الأعشى .

(٣) القلقشندي . المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٦٥ .

(٤) اتخذ هذا اللقب مجموعة من الناس أتوا للمعز لدين الله، وقد قسم العطاء في الناس فلم يعطهم شيئاً فقالوا: نحن على باطل، فسموا الباطلية. وسحب الاسم بعد ذلك على أمثالهم . القلقشندي. المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٢-٤٠٣. وانظر عن المادة التاريخية جب. المرجع السابق، ص ٩٩: بيطار . أيوبي. ص ٢٤٨ .

جامكية^(١) أو عطاء معين، أو تجعل لهم حصص من إحدى الإقطاعات، ونفقات مؤن وعلّيق^(٢). ويعد هؤلاء من الجيش النظامي المستعد للقتال إلى جانب جنود الأمراء الإقطاعيين^(٣). وبهذا فإننا نرى بأن الإقطاع - على الرغم من سيادته في هذه الحقبة - لم يكن يشمل كافة الأمراء، بل كان يعطى للذين عرفوا بشجاعتهم ونكايتهم بالعدو .

ويسجل الإقطاع في الديوان وتكتب به أوراق تسمى أوراق المُسجّل، بعد أن تمسح الأرض وتعرف مساحتها وما فيها من الأحواض، وتحمل نسختها إلى ديوان صاحب الإقطاع لتحفظ عنده. فإذا طلع الزرع خرج مباشرون من عند صاحب الإقطاع لمسح أرض تلك البلد في كل قَبالة^(٤) بأسماء المزارعين، ويكتب أصل ذلك في أوراق تسمى الفُنداق^(٥). ثم تجمع القَبالات بأوراق تسمى تأريج القبائل^(٦). وتجمع بعد ذلك أسماء المزارعين بأوراق تسمى تأريج الأسماء. ويقابل بين ما اشتملت عليه أوراق المُسجّل وما اشتملت عليه مساحته، ويجمع ذلك كله، وتنظم به

- (١) جامكية . مفرد جامكيات، وتعني الراتب المقرر منحه لمن يخدم في دواوين السلطان؛ القلقشندي. المصدر السابق، ح٢، ص ٤٦٠ : زكي، عبد الرحمن . السلاح في الإسلام - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥١م ، ص ١٨ .
- (٢) القلقشندي. المصدر السابق، ح٢، ص ٥٦٥ .
- (٣) حسين . المرجع السابق، ص ١٣٦ .
- (٤) قَبالة . تجمع على قَبائل وقَبالات، وهي الأرض التي يضمها أصحابها بمبلغ من المال، يؤدونه عنها كل سنة. البقلي. المرجع السابق، ص ٢٦٨ .
- (٥) الفُنداق هو كل ما يكتب فيه المساحات حال قياسها. البقلي . المرجع نفسه، ص ٢٦٢ .
- (٦) التأريج . هو الأوراق التي يبسطها مباشر المساحة بما في السجلات، ويختتمها بما انتهت إليه المساحة. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٣هـ) . نهاية الأرب في فنون الأدب - القاهرة : نسخة مصورة عن دار الكتب ، ١٩٥٤م ، ح٨، ص ٢٥٠ .

أوراق تسمى المَكْلَفَة^(١) يشهد عليها الشهود، وحاكم العمل، وتحمل لديوان المَقْطَع نسخاً^(٢) .

٨ - الأسباب التي تؤدي إلى سحب الإقطاع :

كان الإقطاع يسحب من المَقْطَع إذا قصّر في إعداد أي شيء مما كُلف به، فيسحب منه إذا لم يجند العدد المقرر عليه من الجند، وإذا لم يسلحهم ويعددهم حسب ما هو مقرر عليه، كما كان يسحب منه إذا تقاعس عن الجهاد، وأحجم عن التضحية في سبيل الله، أو أخل بشروط الإقطاع^(٣). ولنا خير مثال فيما أورده ابن الأثير في حديثه عن الحملة الصليبية الثانية، حين فكر أحد الأمراء بالانهزام خوفاً من الخطر الذي يتهدهده من الصليبيين المدججين بالسلاح، والمتحمسين للاستيلاء على مدينة دمشق، إذ نهض شرف الدين بزغش أحد أمراء نور الدين، ومن أصحاب الإقطاعات، منبهاً المتقاعس إلى نتائج انهزامه من المعركة، قائلاً : " من يخاف القتل والجراح والأسر، فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول : " تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم"^(٤).

-
- (١) المكلفة. تكتب الأوراق المكلفة بعد نمو الزرع وإثباته في أوراق مربوطة، تضم جميع هذه الأوراق، بعد أن تجمع وتنظم ، وتسلم لديوان المَقْطَع نسخ منها . ويقوم بهذا العمل مستوفي الصحبة. البقلي. المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- (٢) القلقشندي. المصدر السابق ، ح ٤، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .
- (٣) حسين. المرجع السابق ، ص ١٣١-١٣٢ .
- (٤) ابن الأثير. الكامل، ح ١١، ص ٣٢٥ : ابن قاضي شعبة. المصدر السابق، ص ١٧٠؛ بيطار: أيوبي، ص ٢٤٤؛ حسين. المرجع السابق، ص ١٣١ .

وكان لقول بزغش أثر كبير على المُقَطَّعين ، إذ ذكَّروهم بما يترتب عليهم. فزاد ذلك في إقدام الشجاع، وتفكير المحجم وتبصره في عاقبة أمره. كما اتضح لنا من هذا النص أن المتخاذل لا يكتفى بسحب إقطاعه منه، بل عليه أن يرد ما كان قد أخذه من هذا الإقطاع، ولا ندري ما الذي سيحدث إن لم يتمكن المُقَطَّع من تسديد التزاماته، فهل يسجن بما عليه؟ أم ماذا؟

٩ - أصحاب الإقطاعات في عهد نور الدين :

أما عن توزيع الإقطاعات في عهد نور الدين، فلم توزع جميعها في مدة واحدة، وكانت متفاوتة، في المساحة. ومن الذين تسلموا إقطاعات في عهده :
التركمان ، وقد تسلموا إقطاعات في جوار حلب، ويغلب أنهم تسلموها منذ عهد أبيه عماد الدين زنكي، وزادها نور الدين، واستعان بهم في الكثير من حروبه. فعندما وردت الأخبار بأن جوسلين الثاني جمع الصليبيين من كل ناحية، وقصد مدينة الرها، نهض نور الدين بعسكره، ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، وتمكن بفضل معونتهم من هزيمته. واستخلص من كان أسر من المسلمين، واستعاد كل ما كان قد استولى جوسلين الثاني عليه^(١). كما حرضهم سنة (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) على القبض على جوسلين قائلاً لهم: " من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد ما أراد ". فراقبوا جوسلين الثاني وكمنوا له، وأخذوه أسيراً إلى نور الدين محمود، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار، واستولى نور الدين بعد أسره على ما كان تحت يد جوسلين الثاني من البلاد والقلاع والحصون^(٢). وأمن الناس بذلك من شر جوسلين الثاني .

(١) ابن قاضي شهاب . المصدر السابق، ص ١٢٣ .

(٢) ابن قاضي شهاب . المصدر نفسه ، ص ص ١٣٦-١٣٧ .

كما أقطع عماد الدين زنكي لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين بعلبك سنة (٥٢٣هـ/١١٣٩م). وقد اضطر نجم الدين أيوب إلى تسليمها إلى مجير الدين أبق صاحب الدولة البورية في دمشق، حين حاصر بعلبك سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) بعد مقتل عماد الدين زنكي، وعوضه عنها قرايا من أعمال دمشق، إضافة إلى مقدار من الأموال لم تحدده المصادر. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وأقام بها. وعلى الرغم من أن فعل نجم الدين أغضب نور الدين، لأنه خاف أن يفسد عليه أخوه أسد الدين شيركوه، إلا أن مساعدة نجم الدين أيوب لنور الدين محمود في ضم دمشق، أبقى له إقطاعه في قرايا دمشق، وليس هذا فحسب، بل أضيف له بعض المناطق الأخرى، ذلك لأن نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه طلبا من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأموال في منطقة دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه. وبقيت إقطاعات نجم الدين أيوب بيده، حتى غادر دمشق إلى مصر لينضم إلى ابنه صلاح الدين^(١).

وأقطع نور الدين محمود سنة (٥٤٩هـ/١١٥٥م) حمص إلى أمير الدولة البورية مجير الدين أبق بعد القضاء على إمارته البورية، وضم دمشق إلى أملاكه، وكتب منشوراً بإقطاعه عدة ضياع بحمص برسمه ورسم جنوده^(٢). ولكن مجير الدين تأمر على نور الدين مع أحداث دمشق، فأخذ منه حمص وأعطاه بالس، فلم يقبل بها. ومضى إلى بغداد^(٣). فأقطعها بعد ذلك مع أعمالها إلى أسد الدين شيركوه، إضافة إلى ما كان بيده مثل الرحبة وغيرها، وجعله مقدم عسكريه. فبقيت

(١) أبو شامة. المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٨، ٢٦٤؛ ابن قاضي شهاب: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٢) ابن قاضي شهاب. المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

حمص بيد أولاده أكثر من مئة سنة إلى أيام الملك الظاهر بيبرس^(١).
 كما أقطع بصرى لشمس الدين جاولي، وأقطع ثقيف لشرف الدين بزغش^(٢).
 أما حماة فكانت إقطاعاً لشهاب الدين محمود بن تتش الحارفي، وهو خال صلاح الدين^(٣).
 وأقطع نور الدين محمود قلعة الموصل بعد أن ملكها إلى خادمه الخصي
 سعد الدين كمشتكين^(٤). وأقطع شهاب الدين العقيلي سروج وأعمالها والملاحة من
 أعمال حلب، والباب وبزاغة قرب حلب، وأعطاه عشرين ألف دينار معجلة^(٥). وذلك
 مقابل تنازله عن قلعة جعبر، تلك القلعة التي كانت من أعظم الحصون وأحسنها، لا يطمع
 أحد في السيطرة عليها بالقوة، وكانت قد أعجزت جماعة من الملوك عن أخذها،
 وقتل عماد الدين زنكي والد نور الدين على أبوابها. وسلم إقطاعها لمجد الدين ابن
 الداية. وكانت حلب إقطاعاً له أيضاً^(٦). وقد أقطع نور الدين لشهاب الدين العقيلي

(١) جرجس بن العميد (ت ٦٧٢هـ). أخبار الأيوبيين - القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية (د.ت) ص ٢٩؛ ابن قاضي شهابية. المصدر السابق، ص ١٧٤، ٢٦٤. وهذا الخبر الذي أورده ابن قاضي شهابية دون أن يحيلنا فيه إلى مصدره، يتناقض مع ما نقله هو نفسه عن ابن أبي طي، الذي يذكر أنه لما ملك الناصر - يقصد صلاح الدين الأيوبي - مصر انتزع نور الدين الرحبة وحمص من ناصر الدين ابن أسد الدين. ابن قاضي شهابية: المصدر السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣ نقلاً عن ابن أبي طي.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ح ١١، ص ٣٢٥؛ أبو شامة. الروضتين، ح ١، ص ٢٣٦؛ ابن قاضي شهابية. المصدر السابق، ص ١٧٠؛ بيطار: أيوبي، ص ٢٤٤؛ حسين. المرجع السابق، ص ١٣١.

(٣) أبو شامة. عيون الروضتين، ح ٢، ص ٤٢؛ والروضتين، ح ٢، ص ٣٠.

(٤) ابن الأثير: الأتابكة، ص ١٧٨.

(٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ). البداية والنهاية - القاهرة، ١٩٣٣م، ح ١٢، ص ٢٥٩؛ ابن قاضي شهابية. المصدر السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٦) ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ). تاريخ دمشق؛ تح سهيل زكار - دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ص ٥٠٨؛ أبو شامة: تاريخ الروضتين، ح ١، ص ٩٩.

إقطاع كل هذه المناطق المجاورة لحلب - مقابل قلعة جعبر - لأنها لا حصن فيها يتحصن فيه .

ولم تذكر المصادر إلى من سلم نور الدين محمود إقطاع بعلبك بعد أن استعادها سنة (٥٥٠هـ/١١٥٦م) من الضحاك البقاعي. وكل ما ذكرته المصادر أن نور الدين محمود رَتَّب فيها من سلمت إليه، واعتمد في حفظها عليه^(١) . ويرجع أن نور الدين محمود أقطعها لشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم^(٢). كما أقطع شيزر سنة (٥٥٢هـ/١١٥٨م)^(٣) إلى مجد الدين ابن الداية. وكانت لبني منقذ. وقد تم ذلك بعد الزلزال المدمر الذي حدث في هذه السنة، والذي دمر شيزر، وقتل معظم سكانها، وانتقل من تبقى من بني منقذ إلى دمشق، ومنهم مؤيد الدولة أسامة^(٤).

أما حارم فقد كانت بيد الصليبيين، وتمكن نور الدين بعد انتصاره عليهم سنة (٥٥١هـ/١١٥٧م) أن يناصفهم عليه^(٥)، ثم ما لبث بعد هزيمته في البقية أن عمل على قتال الصليبيين، واستعاد حصن حارم سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) منهم، وأقطعه لأخيه. ولم تذكر المصادر اسم أخيه الذي تسلم الحصن^(٦).

(١) ابن القلانسي . المصدر السابق، ص ٥٠٩: أبو شامة: عيون الروضتين، ص ٢٢٨: ابن قاضي شعبة: المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٢) أبو شامة : عيون الروضتين، ح ٢، ص ٣٠-٣١.

(٣) وهي حصن قريب من مدينة حماة على نحو نصف نهار منها. وهي من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال، كانت لآل منقذ الكنانيين. انظر ابن قاضي شعبة: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٤) يلقب بالمظفر أسامة بن المرشدي بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ (ت ٤٨٥هـ). ابن قاضي شعبة: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٥) أبو شامة: عيون الروضتين، ح ١، ص ٢٢٨: ابن قاضي شعبة: المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٦) ابن قاضي شعبة . المصدر السابق، ص ١٦٤-١٦٥ .

وكانت حران إقطاعاً لنصرة الدين أخى نور الدين^(١). كما أقطع سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) الرقة لأخيه قطب الدين غازي بعد أن ضمها لأملاكه، ورَتَّبَ فيها نواباً عنه^(٢). وأقطع سنة (٥٦٦هـ/١١٧٠-١١٧١م) سنجار إلى ابن أخيه الأكبر المعروف باسم عماد الدين زنكي (سمي على اسم جده) وذلك بعد أن أتم فتحها^(٣). وأقطع نصيبين والرحبة إلى جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الجواد الأصفهاني^(٤).

وأقطع سنة (٥٦٣هـ/١١٦٨م) منبج إلى قطب الدين ينال بن حسان، بعد أن أخذها من أخيه غازي بن حسان لسوء أفعاله فيها^(٥).

وأقطع أكثر قرى الغرب في لبنان، ومناطق أخرى من غير قرى الغرب مثل القنيطرة، وظهر الحمار من وادي التيم، وثلعبايا من البقاع، ومرجة والمعايير، ومنها المعاير فوقانية، والدامور، وشارون، ومجدل بعنا، وكفر عمية - وكلها من لبنان - إلى زهر الدولة شجاع الملك كرامة بن بحتر التتوخي، وذلك في (٧ رجب ٥٦٥هـ/ ٣ يولييه تموز ١١٦١م)، وكلفه مقابل ذلك بتجنيد أربعين فارساً، وما أمكنه وقت المهمات الشريفة، وكتب له سجلاً بذلك^(٦) ولاشك في أنه كلف بتجهيز عدد كبير من الجند المشاة، يتناسب مع سعة المنطقة التي أُقْطِعَتْ له.

(١) ابن القلانسي . المصدر السابق، ص. ٥١٩-٥٢٠ .

(٢) أبو شامة . عيون الروضتين ، ح ١ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن قاضي شعبة : المصدر السابق، ص ١٧٣ .

(٣) ابن قاضي شعبة . المصدر نفسه، ص ١٩٠ .

(٤) أبو شامة . عيون الروضتين ، ح ١ ، ص ٢٧٣ .

(٥) أبو شامة . عيون الروضتين ، ح ١ ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(٦) ابن يحيى، صالح (من علماء القرن التاسع الهجري) : تاريخ بيروت - بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٩٠م ، ص ٢٩ .

كما أقطع الموصل بعد أن تسلمها سنة (٥٦٦هـ / ١١٧١م) لابن أخيه سيف الدين غازي الذي كان صاحبها (١) .

وهناك إقطاعات سلمت للبعض دون أن تحدد المصادر مكان الإقطاع. فقد منح أسامة بن منقذ إقطاعاً لم يحدد مكانه، وجعل له دار العقيقي في دمشق، وقرّر له ثلاثون ألف دينار، وذلك حين استقر في دمشق (٢).

وأقطع مليح بن ليون ملك الأرمن وصاحب الدروب، إقطاعاً على سبيل التألف، وذلك حين أجاب نور الدين إلى الطاعة والخدمة، وأخذ في مساعدته على قتال الصليبيين. وكان سبب منح نور الدين إقطاعاً لابن ليون، أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة حصينة، ولم يكن لنور الدين محمود طريق إليها. وكان ابن ليون يتمكن من الخروج متى أراد، فينال من بلاد المسلمين، ثم يعود إلى الأماكن الحصينة، فاشتره بهذا الإقطاع، حتى إنه صار عوناً له على الصليبيين (٣).

كما وعد نور الدين أباغانم بن المنذر بإقطاع حسن، حين خرج معه من أجل شيزر. ولم تذكر المصادر إن كان نور الدين قد منحه الإقطاع، أم لم يفعل (٤)!! وأقطع نور الدين فخر الدين عبد المسيح المتحكم بمدينة الموصل إقطاعاً لم تحدد المصادر مكانه (٥). ووعد عبد الرحمن بن عبد المنعم الحلبي بإقطاع حسن. ويبدو أن الحلبي توفي قبل أن يتسلم إقطاعه، ولم تحدد المصادر مكان هذا الإقطاع الذي كان ينوي منحه إياه (٦).

(١) ابن قاضي شهبة. المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) ابن منقذ. الاعتبار، ص ٤٥.

(٣) أبو شامة. عيون الروضتين، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤) ابن قاضي شهبة. المصدر السابق، ص ٤٤-٤٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٠-١١١.

(٦) هو عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد الحلبي. أبو شامة. عيون الروضتين، ج ١، ص ٣٨٢، هامش ١.

وأقطع نور الدين محمود أمراء العرب أقاليم في الشام لئلا يتعرضوا للحجاج^(١) مقابل تقديم الفرسان للمشاركة معه في حروبه^(٢).

وهنا يمكن القول بأن من حصل على الإقطاع النوري كان أكثرهم من الجند، ولكن الإقطاع أعطي كذلك لأطباء وعلماء وأدباء قدموا خدمات للسلطان نور الدين محمود، فقد أقطع المؤرخ ابن الأثير وأسرته إقطاعاً في الموصل. كما أقطع أحد الأطباء إقطاعاً مكافأة له عن خدماته الطبية للأسرة النورية^(٣). ولا ندري إن كان إقطاع هؤلاء إقطاع تملك، أم إقطاعاً عسكرياً. ويغلب أن يكون إقطاع تملك. ويتضح لنا من الخريطة المرافقة أن الإقطاعات العسكرية كانت على أطراف المناطق المحتلة من الصليبيين، ليتمكن أصحاب هذه الإقطاعات من الوقوف في وجه الصليبيين، وليعملوا على استعادة الأراضي منهم.

١٠ - النتائج المترتبة على سيادة الإقطاع :

هذا ولا بد لنا قبل ختام هذا البحث من توضيح النتائج التي ترتبت على سيادة الإقطاع في بلاد الشام في عصر نور الدين محمود، فقد كان لسيادة هذا النظام نتائج متعددة منها ما كان إيجابياً، ومنها ما كان سلبياً، ويمكن أن نعدد من مساوئه ما يلي :

١ - إن نظام الإقطاع كان يحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة، وخاصة في مواسم فلاحية الأرض، ومواسم جني المحاصيل الزراعية ؛ لأن غالبية الجند من الفلاحين. الذين كانوا يهتمون بفلاحة أراضيهم قبل موسم الزراعة وجني المحاصيل في أوانها لأخذ ثمار أتعابهم. كانوا يعملون على ترك

(١) أبو شامة. عيون الروضتين، ح ١، ص ٣٥٠.

(٢) ابن كثير. المصدر السابق، ح ٢١، ص ٢٥٩.

(٣) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٥٢.

القتال، والعودة إلى أراضيهم في هذه المواسم^(١). وكثيراً ما كان الأعداء يستغلون المواسم الزراعية، فيقومون بالإغارة على دولة نور الدين^(٢).

وظهر هذا العيب واضحاً في عصر صلاح الدين، فَقَدْ فَقَدَ صلاح الدين سيطرته على الإقطاعات والمَقْطَعِينَ أثناء حصار عكا. إذ أخذ أصحاب الإقطاعات من الأمراء وكبار الجند بالتأفف والاستياء لطول بقائهم مرابطين على عكا. وما إن حلَّ شتاء سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) حتى اضطر صلاح الدين يوسف بن أيوب تحت ضغط الأمراء وكبار الجند إلى أن يأذن للعساكر في العودة إلى بلادهم للقيام بواجباتهم الزراعية، ولأخذ قسط من الراحة، على أن يعودوا بعد انقضاء الشتاء. حدث هذا على الرغم من أن الصليبيين كانوا مازالوا محاصرين لعكا^(٣).

وقد ظهر الخلل واضحاً في هذا النظام أثناء عملية البدل على أبواب عكا المحاصرة، بين من خرج من الأمراء وقادة الجند منها، ومن دخل إليها أثناء حصار الصليبيين لها، إذ خرج ستون أميراً من المدافعين مقدمهم حسام الدين أبو الهيجاء، ودخل إليها بدلاً عنهم عشرون أميراً ومعهم مقدمهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، فإلى جانب عدم المساواة في العدد بين من دخل ومن خرج، فإن من دخل إلى عكا كانوا أضعف وأقل دراية في فنون القتال مقارنة بمن خرج منها، مما أدى إلى سقوط عكا بيد الصليبيين^(٤).

٢ - كثيراً ما كانت الأموال التي بحوزة الجنود لا تكفيهم لشراء ما يحتاجون إليه من معدات ومواد تموينية، فكانوا يقعون تحت طائلة الديون أحياناً، وكان هذا

(١) ابن الأثير: الكامل، ح ١١، ص ٥٥٥-٥٥٦؛ أبو شامة: تاريخ الروضتين، ح ٢، ص ١١٩-١٢٠.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين، ح ١، ص ٧.

(٣) المصدر السابق، ح ١، ص ٨.

(٤) المصدر نفسه، ح ١، ص ٨.

أحد أسباب ضجرهم، إضافة إلى أنهم يبعدون عن أوطانهم فيصيبهم الضجر^(١) .
 ٣ - كان الفلاحون الحائزون على ملكيات إقطاعية محدودة، يعجزون أحياناً عن زراعة أراضيهم نتيجة الغارات العسكرية التي تقوم في أراضيهم، كما أن انشغال المسؤولين بالحروب دفعهم إلى إهمال مشروعات الري والصيانة والاستصلاح، مما أدى إلى تدهور الرقعة الزراعية^(٢) .

أما محاسن الإقطاع فمنها :

١ - لما كان الإقطاع في عهد نور الدين محمود امتداداً للإقطاع السلجوقي الذي تمتع فيه المٌقَطَّع بسائر حقوق الملكية، فقد شجع هذا على إقبال عناصر عسكرية مختلفة، من الترك والعرب والأرمن والتركمان، فضلاً عن الأكراد، على الانضمام إلى جيوش نور الدين محمود، وقد ساعده انضمام هذه العناصر المختلفة على نجاحه في توحيد بلاد الشام ومصر، وإلى صلابة موقفه في وجه الصليبيين^(٣) .

٢ - كان من المنتظر أن يؤدي انتشار النظام الإقطاعي إلى سوء حال الفلاحين، لأنهم أصبحوا تحت رحمة كبار الأمراء الإقطاعيين، ولكن النظم التي وضعها المٌقَطَّع ، حمت الفلاحين من عسف السادة الإقطاعيين. فكان التوقيع الخاص بالإقطاع يأمر المٌقَطَّع بضرورة الأمر بالمعروف، واتباع العدل وحسن معاملة الفلاحين، والمحافظة على الإقطاع، وعمارته، وحسن إدارته^(٤) .

١١ - نقاط الخلاف بين الإقطاع العسكري في عهد نور الدين والإقطاع الأوربي :

ولابد هنا من أن نذكر بعض نقاط الخلاف بين الإقطاع في عهد نور الدين

محمود، وبين الإقطاع الأوربي :

(١) حسين: المرجع السابق، ص ٢٥٧ .

(٢) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٢ .

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٢ .

- ١ - تميز الإقطاع في عهد نور الدين بانسحاب ظاهرة الإقطاعية على أمور الجباية فيما عرف بنظام الالتزام أو التضمين، أي تضمين جباية أموال الإقطاع للضامن، واشتغال المقطعين بالتجارة أحياناً. كما أقطعت بعض الأراضي إلى من ليس له صفة عسكرية، ولم يكن مثل ذلك عند الصليبيين^(١).
- ٢ - كان صاحب الإقطاع في عهد نور الدين محمود ملزماً بدفع ضريبة للدولة. وكان صاحب الإقطاع في أوربة حراً غير ملزم بأي ضرائب.
- ٣ - لم يعرف الإقطاع في عصر نور الدين محمود نظام القناة الذي كان ركيزة الإقطاع الأوربي. وحمت سجلات عقود الإقطاع الفلاح في عصر نور الدين، ووضعت حقوقه، إضافة إلى مراقبة صاحب الإقطاع وما يفعله.
- ٤ - لم يكن صاحب الإقطاع في عصر نور الدين يضمن بقاء الإقطاع في يده. إذ يتمكن المانح له من تبديل الإقطاع أو مصادرتة، بينما اتسم الإقطاع الأوربي بالثبات^(٢).
- ٥ - تميز الإقطاع في عصر نور الدين بإقامة أمراء الإقطاع في المدن، وإنابة وكلاء عنهم لإدارة أمور الضياع، على خلاف السادة في الإقطاع الأوربي الذين كانوا يقيمون في دوائرهم الإقطاعية "الدومين". وهذا يفسر ظاهرة خراب الأرياف والبوادي في ظل الإقطاع الإسلامي^(٣).
- ٦ - تميز الإقطاع في عهد نور الدين محمود بخاصية تأمين رواتب الجند بعد أن عجزت النظم السياسية عن دفعها، نظراً لنضوب مواردها من التجارة الدولية. بينما ظلت تلك الغاية ثانوية في الإقطاع الأوربي. وقد سمح ذلك باحتفاظ النظم الإسلامية باقتصاد منتعش نسبياً قياساً بالاقتصاد في الإقطاع الأوربي .

(١) المرجع نفسه، ص. ٩-١٠، ٢٣ .

(٢) المرجع نفسه، ص. ٢٢-٢٣ .

(٣) المرجع نفسه، ص. ٢٣ .

١٢ - النقاط التي اتفق فيها الإقطاع العسكري في عهد نور الدين مع

الإقطاع الأوربي :

هذا وقد اتفق الإقطاعان فيما يلي :

١ - تشابهت أحوال الفلاحين في إقطاع نور الدين مع الأتقان في الإقطاع الأوربي

بحيث كانت الحاجة إلى الحماية تمثل حجر الزاوية في الولاء للمُقطَّعين .

٢ - شكلت الأهداف العسكرية قوام النظامين، فكان الأمير المُقطَّع أو البارون

يقدمان للسلاطين والملوك إمدادات من الجند لإقرار الأمن في الداخل،

ومواجهة الأعداء في الخارج.

٣ - كان المُقطَّعون في كل من النظامين يتمتعون بصلاحيات إدارية مطلقة، فضلاً

عن السلطات المالية والقضائية والعسكرية^(١).

٤ - أدى وجود الإقطاع سواء في بلاد الشام أو في أوربة إلى التجزئة السياسية،

وتدهور العمران، وغلبة الغيبية - في الفكر والثقافة - على العقلانية^(٢).

١٣ - الخاتمة :

وأخيراً يمكن القول، بأن الإقطاع في عهد نور الدين اتخذ طابعاً حربياً؛ لأن

دولته كانت دولة ثغرية في مواجهة الأعداء، فقد كان على حكام بلاد الشام مواجهة

البيزنطيين من جهة، والصليبيين القادمين إليها من الغرب من جهة أخرى. وكثيراً ما

تحالفت هاتان القوتان ضد نور الدين وبلاد الشام، فكان نورالدين يجد نفسه بحاجة

إلى الفرسان المدربين والمزودين بالسلاح. كما كان بحاجة إلى الخيول، وإلى المشاة

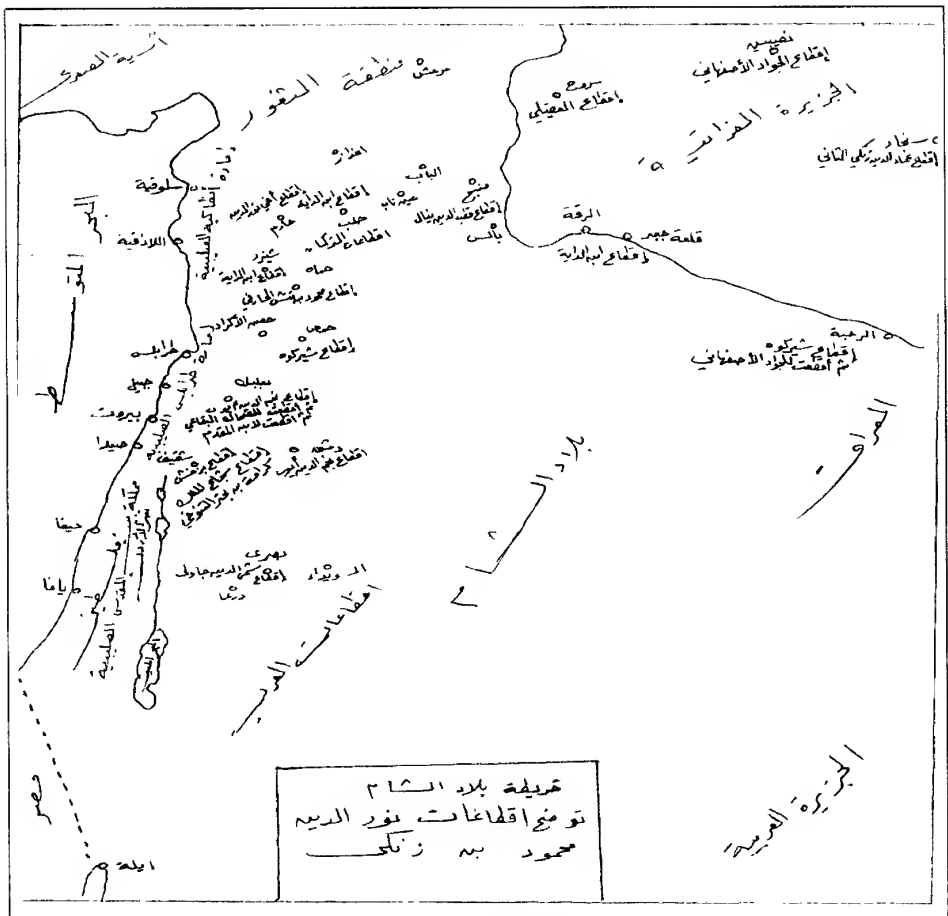
من الجند مما يتطلب أموالاً ونفقات لم يكن بإمكانه تأمينها، ولا تتحملها وارداته.

فعمد إلى توزيع الأراضي على أمرائه وكبار رجال دولته، وعلى من وجد عنده القدرة

(١) المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

والشجاعة. وإلى كل من احتاج إلى خدماته، مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية. ولم يدع حبل هؤلاء المُقَطَّعين على الغارب، بل دون حقوقهم وواجباتهم في مسجلات احتفظ بنسخة منها في دواوينه، ووضح فيها كل ما يترتب عليهم. وحدد منطقة الإقطاع، وحفظ بها حقوق الفلاح. وكان يطَّلع بنفسه على كل ما يتعلق بأمر هؤلاء الجند من الفلاحين، حتى لا يتقاعس المُقَطَّعون عن مدَّهم بما يحتاجون إليه ولذلك فإن عيوب الإقطاع لم تتضح كثيراً في عهده.



المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ). الكامل في التاريخ؛ راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق - ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية؛ تح عبد القادر طليمات - القاهرة: دار الكتب الحديثة - بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٣م.
- إسماعيل، محمود. الإقطاع في العالم الإسلامي - الكويت: حوليات كلية الآداب، الحولية (١١)، ١٤١٠هـ.
- الباشا، حسن. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار - القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٦م.
- البقلي، محمد قنديل. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ). فتوح البلدان؛ تح عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع - بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٧م.
- بيطار، أمينة. الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (١٣٢-٣٥٨هـ) - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.
- تاريخ العصر العباسي - ط ٤ - دمشق: جامعة دمشق، ١٩٩٢م.
- تاريخ العصر الأيوبي - دمشق: دار الطباعة الحديثة (١٩٨١ - ١٩٨٢م).
- جب، هاملتون. مآثر صلاح الدين، دراسات في حضارة الإسلام - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٤م.

- الجبر. حصة . الحياة الاقتصادية في فارس خلال الفترة من ٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٦-٩٤٥م) رسالة دكتوراه لم تنشر -٠ الرياض: جامعة الملك سعود - كلية الآداب ، ١٩٩٤م .
- الجنيدل، حمد العبد الرحمن . التملك في الإسلام، بحث لنيل درجة الماجستير من المعهد العالي للقضاء -٠ الرياض ، ١٣٩٠هـ .
- الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٢١هـ) . الوزراء : تح مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي-٠ ط ١ -٠ القاهرة - مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٨م .
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ) . الصحاح أو تاج اللغة وصحاح العربية: تح أحمد عبد الغفور عطار-٠ ط ٢ -٠ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م .
- حسنين، محمد ربيع . النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين-٠ القاهرة (د. ط) ، ١٩٦٤م .
- حسين، محسن محمد . الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها-٠ ط ١ -٠ بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م .
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ) . العبر وديوان المبتدأ والخبر-٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢م .
- زكي، عبد الرحمن . السلاح في الإسلام -٠ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥١م .
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥هـ) . تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين -٠ بيروت : دار الجيل (د.ت) .
- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: تح أحمد البيسومي -٠ دمشق : وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي ، ١٩٩١م .
- ابن يحيى، صالح (من علماء القرن التاسع الهجري) . تاريخ بيروت -٠ بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٩٠م .

- طرخان ، إبراهيم . الإقطاع الإسلامي أصوله وتطوره -٠ بيروت : مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد (٢٦) كانون أول/ ديسمبر ، ١٩٨٠ م .
- عاشور، سعيد عبد الفتاح . مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك -٠ بيروت: دار النهضة العربية (د.ت).
- العدوي، إبراهيم أحمد . الأمويون والبيزنطيون -٠ ط٢ - القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .
- ابن العميد، جرجس (ت ٦٧٢هـ) . أخبار الأيوبيين -٠ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية (د.ت) .
- ابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ) . مختصر كتاب البلدان -٠ ليدن ، ١٩٦٧ م .
- ابن قاضي شعبة (ت ٨٧٤هـ) . الكواكب الدرية في السيرة النورية؛ تح محمود زايد -٠ ط١ - بيروت : دار الكتاب الجديد، ١٩٧١ م .
- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ) . نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة -٠ ليدن، ١٨٨٩ م .
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ) . ذيل تاريخ دمشق ؛ تح سهيل زكار -٠ دمشق : دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٣ م .
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) . صبح الأعشى في صناعة الإنشا ؛ شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين -٠ ط١ - بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٨٧ م .
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) . البداية والنهاية -٠ القاهرة، ١٩٣٣ م .
- الماوردي، أبو الحسن بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ) . الأحكام السلطانية والولايات الدينية -٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ م .

- مسكويه، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ). تجارب الأمم وتعاقب الهمم -٠ القاهرة : شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤م.
- ابن مماتي ، أسعد (ت ٦٠٦هـ). كتاب قوانين الدواوين : تح عزيز سوريال عطية-٠ ط ١ -٠ القاهرة : مطبعة مدبولي ، ١٩٩١ م .
- ابن منقذ، أسامة (ت ٥٨٤هـ). كتاب الاعتبار : تح قاسم السامرائي-٠ ط ١ -٠ الرياض : مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، ١٩٨٧ م .
- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب -٠ القاهرة : نسخة مصورة عن دار الكتب ، ١٩٥٤م .
- ابن واصل ، محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب -٠ القاهرة : جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ). كتاب الخراج ، مستل من كتاب التراث الاقتصادي الإسلامي-٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الحداثة ، ١٩٩٠ م .